أبو الحسن الغبريني وكتابه
"عنوان الدّراية"

د. زينب قوني
جامعة حمة لخضر الوادي (الجزائر)

الملخص :

هذا المقال يستوقفنا مع أحد أعلام الجزائر البارزين في عصر مشرق من عصور تاريخ الجزائر الأدبي؛ يتعلق الأمر بالعلامة أبي الحسن الغبريني صاحب عنوان الدراية، و"الغبريني" مع "عنوان الدراية" ثنائية رائدة في عالم الفكر والأدب؛ ذلك أن أهم آثار هذا العلامة هذا المؤلَّف الذي ضمنه ما يفوق مائة ترجمة لنخبة من رجالات العلم والأدب؛ إلى جانب نصوص أدبية قيِّمة، مع سيطرة واضحة لأهل الفقه والتصوف؛ والسني منه على الخصوص.

وعليه فعنوان الدراية هو بحق عنوان للمعرفة؛ إذ يعد بمثابة الوثيقة التاريخية الشاهدة على عصر أدبي هام من حياة الجزائر الثقافية في مدينة بجاية؛ ذلك هو القرن السابع الهجري، حسب ما جاء في العنوان الكامل لكتاب الغبريني:"عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" الذي هو موضوع هذا المقال.

Résumé:

Cet article présente des renseignement sur qulqu 'un des grands écrivaient de l'Algérie. on discute de Abu Hassan Alghebrenni et Son livre «titre du savoir» qui donne des connaissance selon les écrivaient et de la culture Algérie dans la ville de Bejaia, pendant le septième siècle AH, comme indiqué dans le titre complet du livre Alghebrenni. qui fait l'objet de cet article.

تمهيد :

"الغبريني" و"عنوان الدراية" اسمان يحيل كل منهما -عند ذكره- إلى الآخر؛ فالغبريني "صاحب عنوان الدراية"؛ هذا ما يذهب إليه المشتغلون بالتأريخ للأدب الجزائري، ذلك أنه اشتهر بهذا المؤلَّف الموسوم بـ: "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"، وهو من مصادر الأدب الجزائري القديم الهامة؛ وقد ذاع صيته في مرحلة مشرقة من حياة الجزائر الثقافية، كانت خلالها بجاية مركز إشعاع ثقافي بحق، إلى جانب تلمسان في غرب البلاد، وهذا المقال محاولة للتعريف بالغبريني وكتابه، اعتبارا للأهمية التي يكتسيها لما يحمله من مادة أدبية قيِّمة تنوعت بين النصوص الأدبية وتراجم الأعلام، وقبل التفصيل في محتوى الكتاب، نعرض جانبا من حياة صاحبه؛ انطلاقا من مولده ، نسبه ونشأته.

أولاً: التعريف بالغبريني:

1 – الغبريني -المولد، النسب والنشأة :"صاحب" عنوان الدراية " أحمد بن أحمد بن عبد الله علي أبو العباس الملقب بالغبريني نسبة إلى بني غبرين من أمازيغ وادي سيباو ، ولد سنة 644 هـ/1246م"[1] " وقد وقع خلاف بين مترجميه حول اسم أبيه هل هو أحمد أو محمد ، والرواية المشهورة أنه أحمد"[2] ، "نشأ وتعلم ببجاية مختلف العلوم من فقه ولغة"[3] ، وقد ارتبط بهذه المدينة مما جعله يؤلف كتابه "عنوان الدراية " للتعريف بأعلامها[4] .

وردت للغبريني تراجم في العديد من المؤلفات المعروفة من ضمنها: الوفيات لابن الخطيب القسنطيني ، ولقط الفرائد لأبي القاضي ، والديباج لابن فرحون ، والأعلام للزركلي ، وشجرة النور الزكية لابن مخلوف ، والمراقبة العليا للقاضي النباهي ، وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي[5] ، وقد جاء عنه في وفيات ابن الخطيب: " الفقيه المحدث الجليل الشهير الفاضل قاضي الجماعة ببجاية "[6] ، وهو قول يوضح لنا أن للغبريني مشوار هام مع الدراسة والعلم .

2 – دراسته : كان مولد الغبريني ونشأته ببجاية ، و بها تعلم ؛ إذ "درس أولا القرآن وعني بقراءاته ورسمه، وتعلم القراءة والكتابة وخلط ذلك بدراسة مبادئ العلوم والأدب كما هي طريقة افريقية، وبجاية كانت تابعة لافريقية في سياستها واتجاهاتها العلمية[7]، و"بعد أن تقدم في دراسته أخذ يحضر الحلقات العلمية التي كانت تعقد بالمساجد الكبيرة ، كالمسجد الأعظم ببجاية وغيره، وكجامع الزيتونة بتونس"[8].

وقد ذكر الغبريني بأنه " درس نوعين من العلوم :

- **علوم الدراية** : وأراد بها علم الفقه وعلم الأصلين : أصول الدين وأصول الفقه وعلم العربية وعلم التصوف وعلم المنطق ...
- **علوم الرواية** : وأراد بها علوم التفسير وعلوم الحديث وعلوم الفقه وعلوم العربية وعلوم التصوف"[9].

ودرس كتبا كثيرة في تفسير القرآن الكريم ، والحديث ، والفقه ، والعربية ، والتصوف، وأصول الدين وأصول الفقه[10] .

فبرنامج دراسة الغبريني ثري ، و قد كانت له – أيضا – فرصة للدراسة بتونس، فتلقى مختلف علوم عصره، وقد فاق عدد الذين درس عليهم السبعين ، وهو ما ورد في نهاية "عنوان الدراية" ،

ومن أشهر أساتذته[11] : أبو محمد عبد الحق بن ربيع[12] ، وابو القاسم بن زيتون [13] ، وأبو العباس بن عجلان[14].

3 - مؤلفاته : من آثار الغبريني " المورد الأصفى" و"الفصول الجامعة"، وأهمها "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"[15].

4 – مناصبه: شتغل الغبريني مدة في وظيفة التدريس ، ليتولى بعدها القضاء في مدن عدة آخرها بجاية[16]، "ولما ولِيَ خطة القضاء ترك حضور الولائم ، ودخول الحمام ، وسلك طريق اليأس من مداخلة الناس وكان في أحكامه شديداً مهيبا "[17] .

5 - وفاته: هناك خلاف في تاريخ وفاة الغبريني، " فابن الخطيب القسنطيني ذكر في وفياته أنه توفي سنة 704 هـ ، وابن فرحون ذكر في الديباج أنه توفي سنة 604 هـ وإثبات ستة بدل سبعة تصحيف لا محالة ، والقاضي النباهي يذكر أن تاريخ وفاته سنة 704 هـ ، ويؤيد هذه الرواية ... ابن خلدون ،... والحفناوي صاحب تعريف الخلف ، وابن شنب في مقدمته لعنوان الدراية، وغيرهم ، وهي رواية مرجوحة"[18]، وقد "حرِّض السلطان ضده فقتل عام 1304م"[19] الموافق ل:704 هـ كما ذكر.

ثانياً: دراسة في كتاب "عنوان الدراية": يشيد الحفناوي في كتابه " تعريف الخلف برجال السلف " بالغبريني في حديثه عن كتابه "عنوان الدراية"؛ فيقول: "وكتابه كتاب رجل خبير بما يقول ، ودليل على أنه من الفحول"[20]، فهو كتاب

"عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية " للعلامة أبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني، وقد "حققه لأوّل مرّة محمد بن أبي شنب وطبع بالمطبعة الثعالبية"[21] "عام (1328هـ 1910م) ...ثم طبع هذا الكتاب طبعة جديدة سنة 1969م مصحوبة بالفهارس"[22]، حيث "أعاد تحقيقه عادل نويهض وطبعه ببيروت"[23] ، والذي يقول عن هذا "نشر هذا الكتاب [عنوان الدراية] لأول مرة في مدينة الجزائر سنة 1910 بعناية الأستاذ محمد بن أبي شنب، وفي سنة 1969 قمنا بتحقيق الكتاب وعلقنا على أصوله فجاء ضعف الكتاب الأصلي وقد نشر في بيروت في شهر نيسان – أبريل – 1969"[24].

وفي طبعة ثانية يشير المحقق رابح بونار إلى الباعث الذي حفزه على إعادة طبع كتاب "عنوان الدراية" وهو "أهميته الأدبية والعلمية التي ينطوي عليها كمصدر أساسي للحركة الثقافية ببجاية والقطر الجزائري عامة ، في القرن السابع الهجري وهو مرجع لا يستغني عنه كل دارس، مؤرخ أو باحث اجتماعي"[25] .

وفي أثناء محاولة المحقق لإيجاد نسخ متعددة لهذا الكتاب لم يجد منها "إلا نسختين بالمكتبة الوطنية بالجزائر إحداها مسجلة تحت رقم 1734، والأخرى تحت رقم 2061"[26]، وبالنظر إلى قلة النسخ فقد اعتبر "الأصل المطبوع نسخة ثالثة يرجع إليها عند التصحيح، وكان ... محمد بن أبي شنب قد اعتمد على نسخ متعددة منها نسخة المكتبة الوطنية السابقة (رقم 1734) وثلاث نسخ أخرى في مكاتب خاصة ، وهذا ما يجعل لنسخته المطبوعة أهمية ملحوظة"[27] ، وإذا كان أهم ما حفز رابح بونار لتحقيق "عنوان الدراية" هو أهميته الأدبية والعلمية؛ فما الذي دفع بالغبريني إلى تأليفه؟

1- أسباب تأليفه : يمكن للقارئ المتأمل أن يستشف أسباب تأليف "عنوان الدراية"، من خلال ما جاء في مقدمته؛ إذ يقول الغبريني: "فإنه لما كان طلب العلم اللّدني[28] فرضا على الكفاية حينا ومتعينا في الحال ولم يكن بد في تحصيله من تلقيه عن الرجال ، وكان التلقي إما بمباشرة أو عن سند ذي اتصال ، وكان المباشر تكفي معرفته ، والمسند عنه لا بد أن تعرف صفته ، فلذلك اهتم العلماء بذكر الرجال ، واستعملوا في تمييز أحوالهم الفكر والبال ، ليوضحوا سبيل التحمل ويبينوا وسيلة التوصل ، وقد اختلفت في ذلك مصادرهم ومواردهم ... وأن يكون في هذا إنما هو ما يتعلق بالأمور الدينية ويوصل إلى السبيل المرضية ، والله تعالى متولّي صلاح النيَّة والطوّية وذلك بحيث يعلم طالب العلم الأيمة الذين بهم يقتدي ، وبسلوك سننهم السوي يهتدي ، وإني قد رأيت أن أذكر في هذا التقييد من عرف من العلماء ببجاية في هذه المائة السابعة"[29] .

الغبريني – إذن – أراد من خلال تأليفه لهذا الكتاب ، التعريف بالعلماء الذين عرفوا في بجاية في السنة السابعة للهجرة ، مع ذكر صفاتهم ومزاياهم ؛ لتكون الفائدة واسعة للمتلقي، وليتسنى لطالب العلم الاقتداء بهم.

2-منهج التأليف : يلاحظ أن المؤلف لم يقسم مادة كتابه إلى أبواب ، أو فصول أو مباحث ، كما أنه لم يصنف العلماء حسب طبيعة العلوم التي تفوقوا فيها ، بل عمد إلى سرد أسماء العلماء وفقا لعامل الزمن ، كما نجد أنه عمد إلى الانتقاء ، انطلاقا من ذكر ثلاثة علماء ينتمون إلى أواخر القرن السادس الهجري ، ليتبع ذلك بترجمة لعدد كبير من علماء القرن السابع ، محددا المكان "بجاية" التي كانت مدينة زاخرة بأعلام الثقافة والفكر، وفي انتقائه رتب العلماء حسب الأفضلية، فذكر الشيوخ: أبي مدين[30] ، وأبي علي المسيلي[31] ، وأبي محمد عبد الحق الاشبيلي"[32] "لانتشار فخرهم، وأبدأ بهم رضي الله عنهم ، ثم أتلوهم بذكر مشيختي وأعلام إفادتي ، ثم أتلوهم بمن سواهم"[33] ؛ وهنا يشير إلى البدء بذكر المشايخ الثلاث لفضلهم ، ثم يذكر من استفاد منه من العلماء، ثم يأتي بعدهم عامة العلماء.

3- محتوى الكتاب : انطلاقا من العنوان يتعرف القارئ عن محتوى الكتاب ، الذي ضمنه صاحبه تراجم لعلماء قطنوا بجاية في فترة محددة حصرها المؤلف في المائة السابعة للهجرة، وإن كان ذكر – إلى جانب ذلك – بعضا ممن عاشوا في بجاية أواخر المائة السادسة، ويقول في هذا السياق :" وإني قد رأيت أن أذكر في هذا التقييد من عرف من

العلماء ببجاية في هذه المائة السابعة التي نحن في بقية العشر الذي هو خاتمتها ختمها الله بالخيرات ، وجعل ما بعدها مبداءً للمسرات ، وأذكر من اشتهر ذكره ، ونبل قدره وظهرت جلالته ، وعرفت مرتبته في العلم ومكانته ، وقد رأيت أن أصل بذكر علماء هذه المائة ذكر الشيخ أبي مدين والشيخ أبي علي المسيلي والفقيد أبي محمد عبد الحق الاشبيلي رحمهم الله و رضي عنهم ، لقرب عهدهم بهذه المائة لأنهم كانوا في أعقاب المائة السادسة للتبرك بذكرهم"[34].

وعلى العموم؛ فإن محتوى "عنوان الدراية" عبارة عن أخبار متفرقة تتعلق بحياة العلماء، والبالغ عددهم (مائة وثمانية عالم) ، وقد صنف مُحقق هذه الطبعة هؤلاء المترجم لهم إلى ثلاثة أقسام هي كالآتي :

1 – " تراجم البجائيين والجزائريين ومن يتصل بهم .

2 – تراجم الأندلسيين المهاجرين إلى بجاية ونواحيها .

3 – تراجم الغرباء الوافدين عليها من المشرق"[35] .

4- نماذج من عنوان الدراية: يقول أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن عمر الأنصاري (البجائي):

سَفَرتْ عَلَى وَجْهِ الجَمِيلِ فَأَسْفَرَا ... وَبَدَا هِلاَلُ الحُسْنِ مِنْهَا مُقْمِرَا
وَدَنَتْ فَكَاشَفَتِ القُلُوبَ بِسِرِّهَا ... وَسَقَتْ شَرَابَ الأُنْسِ مِنْهَا كَوْثَرَا
وَرَأَيْتُهَا فِي كُلِّ شَيْءٍ أَبْصَرَتْ ... عَيْنَايَ حَتَّى عُدْتُ كُلِّي مُبْصِرَا
وَسَمِعْتُ نُطْقَ النَّاطِقِينَ فَكُلُّهُمْ ... بِالحَمْدِ وَالتَّسْبِيحِ عَنْهَا أَخْبَرَا
وَبِهَا رَكِبْتُ زَوَاخِراً مِنْ حُبِّهَا ... وَلَبِسْتُ سِرَّ السِّرِّ ثَوْباً آخَرَا
وَبِهَا فَنِيتُ عَنِ الفَنَاءِ وَغُصْتُ فِي ... مَاءِ الحَيَاةِ مُسَرْمَداً وَمُدهَّرَا

ولأبي الفضل ابن النحوي ، أورد الغبريني القصيدة المشهورة " المنفرجة"، التي وردت مخمَّسة، وقد خمَّسها أبو محمد بن نعيم الحضرمي القرطبي (المتوفى سنة 636هـ) ، نورد مقاطع موجزة منها بالنظر لطولها ، و ممّا جاء فيها:

لاَ بُدَّ لِضَيْقٍ مِنْ فَرَجِ ... وَالصَّبْرُ مَطِيَّةُ كُلِّ شَجِ ... وَبِدَعْوَةِ أَحْمَدَ فَابْتَهِجْ
إِشْتَدِّي أَزْمَةً تَنْفَرِجِ ... قَدْ آذَنَ لَيْلُكِ بِالبَلَجِ
يَا نَفْسُ رُوَيْدَكِ لاَ حَرَجٌ ... وَثِقِي بِاللَّهِ عَسَى فَرَجٌ ... وَكَذَا مَا ضَاقَ لَهُ فَرَجٌ
وَظَلاَمُ اللَّيْلِ لَهُ سُرَجٌ ... حَتَّى يَغْشَاهُ أَبُو السَّرَجِ

5 - قيمة الكتاب : بقراءة متمعنة في محتوى "عنوان الدراية" نلمس جوانب من قيمته ؛ على اعتبار أنه نقل لنا صورة حيّة عن الحياة الفكرية والأدبية في مدينة بجاية ، على مدى أكثر من قرن من الزمن، وقد جاء في مقدمة المحقق الأول للكتاب (ابن أبي شنب) في هذا السياق بأنه كتاب " تلوح أنوار الحقائق من سبل عباراته ويعبق شذا عرف المعارف من بيان إشاراته ، أورد فيه مؤلفه من تراجم علماء عصره وأخبار مصره ، ما يحتاجه المتشوق إلى فرائد الفوائد ، والمتشوق إلى أوابد العوائد مع ذكر وفياتهم ومؤلفاتهم وسيرهم في مذاهبهم ، وعاداتهم واستطراد الأحاديث الشريفة ، والآثار الصالحة المنيفة والمبَاحث الفقهية ، والفتاوى الشرعية ، وغير ذلك مما لا يحصى ولا من غيره يستقصى"[36] ، والقارئ للكتاب يتبين له أن "أسلوبه واضح سهل رشيق العبارة ، ولكنه لا يحتوي على مادة فكرية غزيرة ، أو مضمون ثقافي عميق ، وعذر مؤلفه أنه كتاب تراجم لأعلام بجاية المعاصرين له"[37] .

ورغم هذا الرأي الأخير لبعض الأساتذة، وما يؤخذ على الكتاب من حيث حجم التراجم والتفاوت الكبير الملاحظ - إذ وردت تراجم في صفحات عديدة ، فيما لم تتجاوز ترجمات أخرى نصف صفحة - فإنه يظلُّ سجلاً شاهداً

على حقبة زمنية مزدهرة عاشتها بجاية ، كيف لا ؟ وقد ضمنه صاحبه معارف طرقت مجالات عدة ؛ فتنوعت المحاور من الفقه ، إلى الأدب بشعره ونثره ، إلى جانب المباحث الفلسفية والتصوف[38] ، وعليه فهذا الكتاب مدوَّنة ثرية المحتوى بجمعها بين المعلومات التاريخية ، والنصوص الأدبية التي تنتظر أن يوليها الباحثون العناية بالدراسة والبحث.

هوامش:

[1] أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة ، معجم مشاهير المغاربة ، منشورات دحلب، الجزائر ، (دط)، 2004م، ص 363.

[2] الغبريني ،"عنوان الدراية" فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 1981، ص 12 .

[3] رابح خدوّسي ، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين ، دار الحضارة ، الجزائر ، ط 1 ، 2002 ، ص 61 .

[4] ينظر: عبد القادر بوعرفه الهلالي ، أعلام الفكر والتصوف بالجزائر ، ج 1 ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران ، الجزائر ، (د ت ط) ، ص 54 .

[5] ينظر: الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 12 .

[6] ابن قنفذ القسنطيني،الوفيات ، تح: عادل نويهض ، دار الآفاق الحديثة ، بيروت، ط4 ، 1983، ص 338.

[7] الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 24.

[8] المصدر نفسه ، ص 25.

[9] المصدر، نفسه ، ص 25.

[10] ينظر: المصدر نفسه ، ص 25 ، 26 ، 27 ، 28.

[11] ينظر: عبد القادر بوعرفة الهلالي ، أعلام الفكر والتصوف بالجزائر ، ص 54 .

[12] هوأبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري ، فقيه ، وإمام ، وصوفي مجتهد ، ومؤلف أديب، ولد ببجاية ، وقرأ بها ، توفي سنة 675 هـ (ينظر : عنوان الدراية ص 85 ، 87).

[13] هو أبو القاسم بن أبي بكر اليمني بن زيتون ، فقيه ، وإمام ، من أهل تونس ، وكان قاضيا بها ، له علم وحكمة، توفي سنة 691 هـ ، (ينظر : المصدر نفسه ، ص 14).

[14] هو أبو العباس أحمد بن عثمان بن عجلان القيسي ، أحد أعلام الدين ، إمام ، تقي ، ورع ، من الفقهاء العبّاد، استوطن بجاية مدة توفي حوالي سنة 675 هـ ، (ينظر: المصدر نفسه ، ص 116).

[15] أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة ، معجم مشاهير المغاربة ، ص364 .

[16] ينظر: الغبريني ، عنوان الدراية ، ص33.

[17] محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان ، الأدب الجزائري عبر النصوص أو إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر ، مج 1 ، ج2 ، طبع وإشهار داود بريسكي ، تلمسان ، الجزائر ، ط1 ،2001 ، ص 234 .

[18] محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان ، المرجع نفسه ، ص 14 .

[19] رابح خدوسي ، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين ، ص 61 .

[20] الحفناوي ، تعريف الخلف برجال السلف ، سلسلة العلوم الإنسانية ، بحث وتقديم: محمد رؤوف القاسمي الحسني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرغاية ، الجزائر ، (دط) ، ج1 ، 1991 ، ص 31.

[21] أبو عمر الشيخ وفريق من الأساتذة ، معجم مشاهير المغاربة، ص364.

[22] محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، الأدب الجزائري عبر النصوص أو إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ص 234.

[23] أبو عمر الشيخ وفريق من الأساتذة ، معجم مشاهير المغاربة ، ص365.

[24] ابن قنفذ القسنطيني ، ص 339 .

[25] الغبريني، عنوان الدراية ، ص 50.

[26] المصدر نفسه ، ص 51 .

[27] الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 51 .

[28] ما يتصل بالوحي ، ويدخل في ذلك علوم القرآن والحديث والفقه وغيرها ، (ينظر: عنوان الدراية ، ص 54) .

[29] المصدر نفسه ، ص 54 ، 55 .

[30] هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي المتوفي سنة 594 هـ قطب من أقطاب التصوف ، وإمام العباد الزهاد في عصره كان أديبا وحكيما ، (ينظر : عنوان الدراية ، ص55).

[31] هو أبو علي حسن بن علي محمد المسيلي ، العالم العابد كان يسمى أبا حامد الصغير جمع بين العلم والعمل والورع ، له مؤلفات قيمة (ينظر: المصدر نفسه ، ص 66).

[32] هو أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدي الاشبيلي ، إمام وفقيه، رحل إلى بجاية،وتخيرها وطنا،له تآليف جليلة ولي القضاء مدة ، وتوفي سنة 582 هـ (ينظر: المصدر نفسه ، ص73).

[33] المصدر نفسه ، ص 55 .

[34] الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 55 .

[35] المصدر نفسه ، ص 36 .

[36] الغبريني ، عنوان الدراية ، ص 53 .

[37] أبو عمران الشيخ وفريق من الأساتذة ، معجم مشاهير المغاربة ص 365 .

[38] ينظر : الغبريني ، عنوان الدراية ، ص41 .